إلى أن نلتقي

تلك اللحظة

ليس من الدقة أن نقول : إنها لحظة سعادة ، مع أنها تطلق تلك القوى الروحية التي يطلقها الفرح ، ولا أنها لحظة حزن ، مع أنه يشوبها شيء من القلق الذى تبثه الأحزان .

لعل أهم ما يميز تلك اللحظة هو أنها تأتي فجأة ، دون أسباب واضحة للفرح أو للحزن ، تجد نفسك فجأة قد أصبحت أكثر خفة ، تبصر الأشياء من حولك ذات وجود متميز ، وكأنها تريد أن تقدم إليك نفسها ! .

اللوحة التي كنت تراها كل يوم على الحائط دون مبالاة تسطع ألوانها فجأة ، وتتحاور خطوطها وألوانها بلغة صامتة ناطقة ، تصلك لأول مرة الأفكار التي كانت تدور برأسك أحيانا دون رابط ، وقد تسبب لك الدوار ، تتماسك فجأة كأيدي مجموعة من الراقصين ، تضبط منهم الخطوات ، وتتوافق حركات أجسادهم مع ضربات أقدامهم ، فتتشكل الموسيقا من الحركة المتوائمة . ويولد معنى شامل من هذه الأفكار ، حين تترابط في شكلها الجديد .

ما الذى يحدث في داخلك أو في الخارج ، فيتوازن العالمان الداخلي والخارجي في موسيقا صامتة أو ناطقة ؟ وتطرد عن رأسك هذا السؤال وغيره ، فرغبتك في أن تعيش اللحظة أقوى ألف مرة من رغبتك في أن تدرك أسبابها ، أو تفهم منطقها !

ربما تخشى أن تعصف محاولتك للفهم بهذه اللحظة نفسها !

وتبدأ في التعامل معها كأنها منحة سماوية ، فما تنجزه في هذه اللحظة يكاد يصل إلى كماله الخاص ، ويحقق جماله الفريد ، فنا أو علما أو فكرا ، أو عملا من أي نوع . إنها لحظة تشعر خلالها أنك تبدع كما تتنفس !

وتؤرقك الأسئلة الخفية : إلى متى تبقي هذه اللحظة ؟ هل أنت الذي يملكها أو هي التي تملكك ؟

ما الذى ينبغي أن تفعله للإمساك بمثل هذه اللحظة ؟

يقول لك من يعنيهم الأمر : لكل شيخ طريقته في الإمساك بهذه اللحظة !

ويقول لك يحيى حقي : « لا يكفي أن تنتظرها ، قابلها في منتصف الطريق » .

ويقول لك نجيب محفوظ : « انتظرها كل يوم في موعد ثابت ، حتى ولو لم تجيء إليك » !

ويقول لك بعض علماء النفس : « سوف يأتي يوم نتنبأ فيه بقدومها كما يتنبأ علماء الإرصاد بمقدم العواصف والأمطار ! »

وإلى أن تختار الإجابة التي تروق لك دعني أهمس في أذنك : ليست هناك طريقة للإمساك بهذه اللحظة سوى أن تفتح لها الأبواب حين تجيء ، سوى أن تنجز في ظلها كل ما حلمت بإنجازه ! لاتقل لها أبداً : "انتظري ريثما أنتهي من حديثي مع « الملك سليمان » ، أو ريثما تفرغ « بلقيس » من ارتداء ملابسها !

ويا أيها الذين تملكهم هذه اللحظة أو يملكونها ، لاتتركوها ترحل ، دون أن تفعلوا فيها شيئا ، فقد لاتعود إليكم أبداً ، وحينذاك سوف تشعرون بأنكم موتى ولو عشتم ألف عام !

أبو المعاطي أبو النجا